C. حضارة الفرس الأخمينيديين وديانتهم

I. الحضارة الفارسية الأخمينيدية

تتميز سلالة الفرس الأخمينيديين المتحررة بجوهرها، بحسها التنظيمي وبنبوغها الاداري وتسامحها الديني.

فلقد حققت الدولة الأخمينيدية في التنظيم الاداري ابتكارات ثلاثة كانت مجهولة الى ذلك الحين: مركزية لافتة جداً بالنسبة الى ذلك العصر وفصل حقيقي للسلطات المدنية والعسكرية وحرية المعتقدات والممارسات الدينية.

فالمركزية لم تُلغِ القوميات المتفرقة في الأمبراطورية. وقد ظلت كل قومية من تلك القوميات متعايشة مع حضارتها. وعلى عكس المجتاحين والفاتحين السابقين الذين كانوا يحاولون فرض آلهتهم على الشعوب التي يحتلونها فإن الفرس لم يهتموا أبداً بتغليب آهورا مزدا على الآلهة السامية والمصرية واليونانية.

«فعلى عملات المرازبة لم نكن نجد صورة آهورا مزدا فقط بل صورتي بعل طرسوس وبالاس أثينا كذلك»[1].

١ ـ إرث الملوك الأخمينيديين

إن الفرس الأخمينيديين حققوا وحدة إيران ووحدة العالم الشرقي وأنشأوا أول دولة متحضرة وأول أمبراطورية شرق أوسطية كبرى ومهدوا لإشعاع حضارة عالمية. وإن مقاطعاتهم الأكثر بعداً عن المركز عرفت إدارة ناجحة في ميادين: تنظيم المدن، تطوير الزراعة والتجارة، قنوات الري، الخ... وقد تطورت العلوم في أيام حكمهم وشع الفن الفارسي خارج حدود إيران.

إن استعمار الفرس السياسي، برغم كونه قائماً على ارادة السيطرة، غير أنه كان ملطفاً بروحهم المتحررة والمتسامحة. فنزعتهم القومية المتفهمة كانت تستوعب

1 Huart et Delaporte, *op. cit.*, p. 271.

الديانات الأخرى التي كانوا يحتضنونها ولغات الشعوب الخاضعة لهم. وباحتفاظ تلك الشعوب بشخصيتها التاريخية إنما دخلت في علاقات مع بعضها بعضاً.

وقد عرف الشرق الأدنى في ظل السيطرة الفارسية الأخمينيدية، برغم حكمهم المستبد الذي كان غالباً عرضة للتعكير نتيجة مآسي القصور ونزوات الملوك العنيفة والغريبة الأطوار، وقبل الأمبراطورية الرومانية بقرون عدة، عهداً من السلم العميق الذي كان مفقوداً قبل الفرس. فالصراعات الداخلية والحروب بين شعب وشعب وبين مدينة ومدينة توقفت لفترة تفوق القرنين «ذلك أن ازدهار الأخمينيديين المادي كان مدعوماً بعقائد خلقية ودينية»[2].

في مجال الفن، كما في مجال الحضارة المادية عند الفرس فالتأثير الأشوري - الكلداني واضح. فقد تبنت أمبراطورية الفرس اللغة الآرامية والكتابة المسمارية فوراً. غير أنه في مجال الهندسة المعمارية كان للفرس ابتكارات، ففي حين كانت الصروح الكلدانية ذات توجه ديني (معابد) كانت الهندسة المعمارية الفارسية منصبة على الاهتمام بقصور الملوك. وفي فن النحت نقل الفرس ههنا أيضاً عن الأشوريين لكن نبوغهم تسامى في هذا الميدان الى المجردات المجسدة. «فالفن الأخمينيدي يبدو الينا «كفن أشوري ملطف» فهو أقل حركة وتنوعاً من الفن السرجوني، وكفن رحب وهادىء تجلله العظمة»[3].

«فالاخمينيديون سواء في ميدان الثقافة المادية أو الدين أو الثقافة الروحية كانوا السبّاقين في نقل الأشكال والأفكار بين الغرب والشرق وفي تحقيق تقارب هذين العالمين وحضارتيهما راسمين بهذا، الطريق التي على العالم الإيراني سلوكها في المستقبل»[4].

٢ ـ المزدية الأخمينيدية دين رسمي

أ ـ أديان فارس

لقد رأينا في مجال تطرقنا الى مملكة مادي أن شعوب إيران الغربية كان لها في أيام حكم الملوك الماديين أربعة أنواع من الدين: دين الشعب، أي السكان الأصليين من آرومة آسيانية، ودين المجوس وهم من أصل آري ودين الملوك الماديين

2 Moret, *Histoire de l'Orient,* II, p. 765.
3 R. Grousset, *Les Civilisations de l'Orient,* I, p. 115.
4 Ghirshman, *op. cit.*, p. 181.

وأخيراً الزرادشتية التي كانت قد أبصرت النور لتوها.

ومع اعتلاء الفرس سدة السلطة فإن ديناً سلالياً جديداً حل محل دين الملوك الماديين البائدين وهو الدين المزدي الأخمينيدي. وإن التعايش بين جميع هذه الأديان لدى الهندو ـ إيرانيين في إيران إنما ينبع من روح تسامح ساعدت الفرس على توطيد سيادتهم على جميع شعوب الشرق الأدنى. بالفعل فحتى أحشورش ظل ملوك الملوك المتساهلون حيال أديان أمبراطوريتهم الكبيرة يعتمدون الإله مردوك في بابل فضلاً عن آلهة مصر.

ب ـ المزدية الأخمينيدية، دين رسمي

إن عقيدة زرادشت الدينية برغم محاربتها من جانب الأرستوقراطية الفارسية التي اعتبرتها لصالح الفقراء والمجوس والماديين والشعب، إلا أنها على مايبدو حققت تقدماً في زمن الأخمينيديين: لكن الدين الرسمي للدولة هو دين الملوك الأخمينيديين الذي يمكننا أن ندعوه الدين المزدي الأخمينيدي تمييزاً منه عن الدين المزدي الزرادشتي.

ج ـ الوجه الديني والسياسي للمزدية الأخمينيدية

كان الملوك الأخمينيديون وعلى خط موازٍ للمزدية الزرادشتية يعتمدون بالفعل ديناً رسمياً يتصف بسعة الصدر، فمع قبوله بتفوق آهورا مزدا كان يسمح ببقاء آلهة إيرانية قديمة لا تحمل أسماء شخصية. وبدءاً من عهد أرتحششتا الثاني (٤٠٥ـ٣٥٩) أضيف على مجمع الآلهة الرسمي الفارسي إلهان أدرجا الى جانب آهورا مزدا هما: ميترا إله الشمس وهو من أصل إيراني وأناهيتا وهي إلهة الخصب الأسيانية الكبرى.

فآهورا مزدا، وهو الاله الأسمى أو الكبير وليس الاله الوحيد وخالق السماء والأرض، يختار الملك ويفضي اليه بالسلطة وبدعمه الالهي للتغلب على الأعداء.

«هو الذي بإرادته يسيّر أعمال الملك... وإن هذا الملك الأخمينيدي لا يحمل سيفه بعيداً عن وطنه الأم باسمه الخاص. فلتنفيذ الإرادات الالهية، على الملك أن ينصاع لموافقة الإله الكبير. غير أن هذا الخضوع هو خضوع محدود. إذ أن فارس الأخمينيديين ليست دولة مبنية على الدين كما سيكون الوضع في عهد الخلافة العباسية. فحتى لو كان داريوس يستمد قوته من الإله نفسه، فالأمر ليس إطلاقاً في نظره أن يرزح تحت عبء عقيدة دينية تصبح لاحقاً ديناً. كما ليس هناك عبادة

أمبراطورية خاصة لكن بمجرد تنصيب الملك على العرش بإرادة آهورا مزدا فإنما كان يضفي على العالم الفارسي نوعاً من الوحدة. . .

فآهورا مزدا هو «سيد العلم» أو «الحكيم» يحكم في السماء ويحتضن بأجنحته الأرض مع الملك، أي الملك الأخمينيدي وهو نائبه الذي يحكم على الأرض.

إن آهورا مزدا هو الإله الأعلى وبمرتبة أرفع من مرتبة الآلهة الآخرين. كما أن الدين الأخمينيدي لم يكن ديناً موحداً بعد ولكن تياراً من عبادة الصنم الواحد قد مرّ على فارس».[٥]

إن هذه العقيدة السياسية الدينية، التي تجعل من آهورا مزدا إلهاً أسمى ومن الملك البشري مختاره ومحميه ونائبه على الأرض، قد تكون من تأثير سامي ـ بابلي. فدين التوحيد الوثني لدى ملوك بابل المجاورة، الذي فرضه حمورابي (حوالي العام ٢٠٠٠)، كان يجعل من مردوك الإله الأسمى للآلهة ومن ملك بابل ممثل الإله الأسمى مما كان يلائم النزعة التوسعية الناشئة عند الملوك الصغار الأخمينيديين الأول في أنزان إذ سرعان ما اعتمدوه.

«إن دين الملوك هو الدين الذي اعتنقه أجداد قورش في عاصمتهم أنزان عندما كانوا يسيطرون على شعب أنزاني يفوقهم تحضراً. وقد اقتبسوا هذا الدين على الأرجح من تلك الحضارة، غير أن هذه الحضارة الأنزانية، وبطابعها الأكثر حداثة، تأثرت بحضارة بابل التي أخضعت عيلام. ومن هنا نلحظ تأثيراً حقيقياً لدين سامي على معتقدات أسرة هي آرية لا ريب».[٦]

د ـ المجوس والذبائح

إن المزدية الأخمينيدية، وخلافاً للمزدية الزرادشتية التي تحرّم الذبائح، كانت تثابر على تقديم ذبائح الأبقار والجياد والقطعان التي يقوم بها سلك المجوس، وهم طبقة كهنوتية من أصل مادي. وهؤلاء الكهان يفسرون الأحلام ويشاركون في احتفالات تتويج الملك في معبد بازارجادس ويتولون تربية الفتيان ويحرسون أضرحة الملوك وهم يواكبون الجيوش للاحتفال بالذبائح. وإذ يشكلون طبقة منعزلة فهم لا يتزوجون إلا من بعضهم بعضاً.

5 Ghirshman, *op. cit.*, p. 135 et 140.

6 C. Huart et Delaporte, *op. cit.*, p. 294.

هـ ـ الرموز الالهية وأماكن العبادة

في حين أن آهورا مزدا الزرادشتي «سيد الحكمة» هو كائن مجرد تماماً فإن آهورا مزدا الأخمينيدي له صورة إلهية أو رمز وأماكن عبادة. فهو يعبد في معابد تحت شكل قرص شمسي مجنّح، وقد اقتبسه الملوك الحثيون والأشوريون عن الفراعنة. فهذا القرص الذي يمثل الشمس، والذي تخرج منه صورة إلهية لها رأس ملك اخمينيدي هي الصورة الرسمية لآهورا مزدا التي ترفع فوق مذبح من الحجر تشتعل عليه نار مقدسة.

فيما المعبد الفارسي يتخذ شكل برج مربعاً يحتوي على غرفة مرتفعة حيث تشتعل النار المقدسة التي يعمل المجوس على إيقاد وإذكاء نارها. أما الاحتفالات الدينية فتقام في الهواء الطلق وعلى مقربة من المعابد.

وأخيراً وفي حين أن المجوس يُبقون الجثمان مسجىً لئلا تنجس الأرض أو الماء أو النار بلمسه، سيما وأنها عناصر إلهية، فإن الملوك الأخمينيديين يدفنون موتاهم في التراب.

و ـ الوجه الإجتماعي للدين الأخمينيدي
التضامن الإجتماعي والشعور القومي

إن الصفات السامية التي تنادي بها تعاليم المزدية الأخمينيدية تجد صداها خارج الإطار الروحي. فالصدق والإنسانية والتعاون وروح الفروسية والحق والعدل والصداقة كلها فضائل تدعو الفرس إلى إعزازها وإحترامها. هذه التعاليم الإنسانية أسهمت لدى الفرس، وذلك قبل الأغريق بأمد طويل، في بعث روح التضامن الإجتماعي المولّد للشعور القومي ومفهوم الوطن الذي كان مجهولاً قبل الأخمينيديين.

«إن الحق والعدالة، وهما مزيتان وفضيلتان ساميتان، يتمتع بهما داريوس ويتجلى التعبير عنهما بإعجاب في العديد من نقوشه، وهما يمتزجان بشعور قومي لم يكن ليدور في خلد الأمبراطوريات الشرقية من قبله. «فآهورا مزدا... سيحرس البلاد من الغزو ومن المواسم الرديئة والكذب...».

إن هذا الشعور القومي المتنامي إلى هذا الحدّ من السمو عند الملك الكبير لم

يكن محصوراً به وحده إذ ان الملك يُعنى بخير شعبه وهو يدير أقداره بمؤازرة وإرادة إلهه الأسمى. ويلحظ هيرودوت أن كل الشعب الفارسي مشرّب بالروح القومية وحب الوطن فيقول بأن ما من فارسي يصلي أبداً لإلهه من أجل خيره الشخصي «ولكنه يصلي لخير الأمة الفارسية بأجمعها ولملكها ويعتبر نفسه مشمولاً بهذا التمني العام». إن هذه لميزة خلقية في منتهى النبل مما أسهم في إعلاء شعور الأمة بالدور المعلق بها وهو دور الشعب ـ السيد».[٧]

ز ـ قيمة الدين الأخمينيدي الخلقية.

ومع أن الدين المزدي الأخمينيدي لم يبلغ روحانية المزدية الزرادشتية غير أنه على درجة كبيرة من السمو الخلقي النبيل تتعارض كلياً مع الرذائل والوحشية التي كان يباهي بها الأشوريون ـ البابليون.

ففي محفوراتهم الرسمية نجد خلفاء قورش ينادون «بقانون آهورا مزدا الذي هو الصراط المستقيم الذي ينبغي على الملوك والبشر إتباعه... وفوق ضريح داريوس نقش طويل إكتشف أخيراً يعلن عن عقيدة ملكية تحمل روحية أقوال سمعناها: «لقد أحببت العدل وكرهت الكذب. وكان في نيتي الاّ ألحق أي ظلم بأية أرملة أو يتيم. ولقد عاقبت القاتل بقسوة كما كافأت ذلك الذي يحرث حقله.

إن هذه العقيدة الملكية التي غالباً ما كانت تتردد هي سباعية الفراعنة حرفياً كما سبق وظهرت مدونة في نصوص الأسرة الملكية الخامسة (حوالي العام ٢٥٠٠) والتي كررها مصلحو الأسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة اللتين كانتا ما تزالان في عز إزدهارهما زمن الأمبراطورية الفارسية... حيث كل مصري يوم يمثل في قوس العدالة بعد الموت، يؤكد أنه أدى دوره تجاه الحق ـ العدالة وأكمل واجبات التضامن الإجتماعي، وهي الصفات الواردة في إنجيل متى بالكلمات التقليدية إياها والتي تطرح الشرط الذي لا بد منه لقيامة الصالحين من بين الأموات».[٨]

7 Ghirshman, *op. cit.*, p. 134.
8 Moret, *Hist. de l'OrientII,* p. 768, 769.

٣ ـ الدين اليهودي في ظل حكم الفرس
إنجاز بناء الهيكل. تنقيح أسفار موسى الخمسة.

منذ ولادتها كانت الأمبراطورية الفارسية متعاطفة مع اليهود. فقورش، عند دخوله بابل (٥٣٩)، أعاد الحرية إلى اليهود المسبيين وسمح لهم بالعودة إلى وطنهم الأم. وهؤلاء العائدون شكلوا مجموعة دينية عهدوا بإدارة مصالحها المادية والروحية إلى كبير كهان يهوه.

وفي عهد الملك أرتحششتا الأول (٤٦٤ ـ ٤٢٤) عاد رعيل آخر من اليهود بقيادة الكاتب عزرا إلى أورشليم (٤٥٨). وإثر تزايد عددهم بهذا الرعيل الجديد بادرت المجموعة الدينية إلى إعادة بناء هيكل أورشليم. وفي العام ٤٤٥ أنجز نحميا وهو يهودي ترعرع في بلاط ملك فارس وعيّن مرزباناً على اليهودية، بالتعاون مع عزرا، ترميم الهيكل وإحياء العبادة وشرع في إعادة صياغة أسفار موسى الخمسة.

ونشر نحميا القانون الموسوي وأعلن تجديد التحالف القديم المعقود بين إسرائيل ويهوه. وهذا «القانون الثاني» (سفر تثنية الإشتراع) الذي تم إعداده في بابل على يد حزقيال وأجيال عديدة من الكهان في المنفى ينقل الأسفار الأربعة الأولى من أسفار موسى الخمسة بعد تعديلها والكتب التاريخية ويحدد مبادىء عقيدة التوحيد الإلهي. فإلى وصايا موسى العشر أو القانون الأول وهو شعائري صرف، أضاف سفر تثنية الإشتراع أو القانون الثاني وصايا خلقية وقانونية جديدة وقواعد في القانون المدني والجزائي. ويحث على ممارسة العدالة التي توازي بأهميتها ممارسة العبادة. كما ينظم الضرائب والزواج والإرث وإستثمار الأراضي. وخُصّ اللاويون دون سواهم بممارسة شعائر العبادة. وإنحصرت عبادة يهوه في هيكل أورشليم وأنيطت سلطته بكبير الكهان وحده. وهكذا غدت إسرائيل مجموعة دينية يحكمها يهوه بحيث بات حكم تلك المجموعة حكماً تيوقراطياً (حكماً إلهياً).

وفي الوقت نفسه فإن التوحيد الإلهي اليهودي يتجلى بوضوح في قول يهوه مخاطباً أشعيا: «أنا هو الرب إلهك لا يكون لك إله غيري». ومن جهة أخرى فعلى الشعب المختار أن ينير الطريق أمام سائر الشعوب وأن يعلن لهم حقيقة الإله الواحد: «أنا يهوه أقمتك نوراً للأمم».

«ومذّاك أخذ هذا الشعب الصغير والضعيف التائه على رقعة الأمبراطورية الفارسية الواسعة يطمح لأن يكون خميرة العالم الشرقي. . . إن العودة إلى أورشليم هي بداية غزو الكون بالمسيح المخلص»[9]. وهناك فكرة جديدة كانت مجهولة حتى الآن بين اليهود وقد جاءت تكتنز الكتابات الأخيرة من العهد القديم: الإهتمام بمصير الروح أو النفس بعد الموت. مع أن هذه الفكرة كانت معروفة في مصر منذ ألفي سنة: إذ ان الإيمان المصري كان مرتكزاً على قيامة الأموات وهي خاضعة لحكم العدالة. ولم تُخلُ مصر من ذكر عدالة يهوه. وأخيراً فإن يوم الدينونة الأخير منصوص عنه هو أيضاً في مبادىء عقيدة زرادشت.

«في حوالي أواخر الأمبراطورية الفارسية ثمة نصوص مصرية تؤكد بشكل قاطع، التوازي بين الحكمة المصرية والحكمة التوراتية. . . وهذا التوفيق المعنوي جاء بلا ريب نتيجة التوفيق السياسي الذي باركه وشجع عليه الملوك الكبار».[10]

9 Moret, *Hist. de l'Orient,* p. 786.
10 Moret, *Hist. de l'Orient,* II, p. 788.